

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٧ - سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية وآيها تسع عشرة: قال ابن كثير: والدليل على أنها مكية ما رواه البخاري^(١) عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم. فجعلنا يُقرئنا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به. حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ. قد جاء. فما جاء حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى، في سور مثلها. وعن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» تفرد به الإمام أحمد^(٢)، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. وعن النعمان ابن بشير^(٣) أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى، وهل أذاك حديث الغاشية. وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأها. رواه مسلم وأهل السنن. وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين.

- (١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٨٧ - سورة الأعلى، ١ - حدثنا عبدان، حديث رقم ١٨٣١. (٢) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٤٢ (طبعة المعارف). (٣) أخرجه مسلم في: ٧ - كتاب الجمعة، حديث رقم ٦٢ (طبعنا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)

[٢] (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣] (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

[٤] (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ)

[٥] (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ)

« سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » أى نزه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوها، كقوله ^(١) (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) فالاسم صلة . وسرُّ إرادته أن المنزه به إذا كان في غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفضيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره . كما يقال سلام على المجلس العالى . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتفائه ذاته العلية ، فأقبح تنبيهها على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا : سبحان ربى الأعلى ، كما رواه ابن جرير ^(٢) وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شيء سواه ، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير ^(٣) فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمدته الإمام ابن حزم فى (الفصل) حيث رد على من استدلل بهذه الآية

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

في أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره . فقال ابن حزم رحمه الله :

وأما قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فهو على ظاهره دون تأويل . لأن التسبيح في اللغة التي بها نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشيء عن السوء . وبلاشك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه ، الذي هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء ، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به ، ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) ومعنى قوله تعالى ^(١) (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) معنى واحد . وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعالى ، ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه . فكل الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وبين قوله ^(٢) (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) . والحمد بلاشك هو غير الله . وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق . فبطل تعليقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال فرق بين الآيتين . فإن الباء في (بحمد ربك) للملابسة ، ولا كذلك هي في (باسم ربك) ومع اتساع اللفظ الكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لما أيده من الأخبار ، والآية (فَسَبِّحْهُ) وآية (سُبْحَنَ رَبِّكَ) والله أعلم . و (الأعلى) هو الأرفع من كل شيء ، قدرة وملكاً وسلطاناً . واستدل السلف بظاهره في إثبات علو بلا تكليف . والمسألة معروفة .

« الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى » قال الزمخشري : أى خالق كل شيء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام وانساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وإنه

(١) [٥٦ / الواقعة / ٩٦ و ٩٥] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨ و ٤٩] .

صفة حكيم . « وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ » أى قدر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به « وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ » أى أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات « فَجَعَلَهُ وَ » أى بعد خضرته ونضرتة « غُثَاءً » أى جافاً يابساً تطير به الريح « أَحْوَىٰ » أى أسود ، صفة مؤكدة (لفتاء) لأن النبات إذا يبس تغير إلى (الحوّة) وهى السواد . قال ابن جرير^(١) : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى أى أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندى بخلاف تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره . فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبى عبيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَىٰ)

[٧] (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ)

[٨] (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ)

[٩] (فَذَكَرْكَ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَىٰ)

[١٠] (سَيَذَكِّرُكَ مَنْ يُخَشَىٰ)

[١١] (وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَىٰ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٢] (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ)

[١٣] (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » أى سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه .
والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن فلا تنساه .

قال الزمخشريّ : بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازىّ : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :
أحدهما - إنه كان رجلاً أميناً حفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار
ولا كتابة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما - إن هذه السورة من أوائل منازل بمكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب يخالف
للعادة سيمقع في المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً .
الثانى - قيل (لا تنسى) نهى والألف للإطلاق فى الفاصلة وهو جائز مثل ^(١) (السَّبِيلَا)
والمعنى لا تنفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهى عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازىّ : والقول المشهور إن هذا خبر . والمعنى سفقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى
وتأمن النسيان . كقولك (سأكسوك فلا تمرى) أى فتأمن العرى ، قال : واحتج أصحاب هذا القول
على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية . منها أن
النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهى به . فلا بد وأن يحمل ذلك
على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان . مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول
عن ظاهر اللفظ .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

ومنها أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضا خلاف الأصل .

ومنها أنا إذا جعلناه خبرا كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجملك بحيث لا تنساه .
وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي
الدراسة والقراءة . وهذا ليس في البشارة وتعميم حاله مثل الأول . ولأنه على خلاف قوله ^(١)
(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمْجِلَ بِهِ) انتهى .

الثالث : قال البرهان الشافعى فى كتاب (تفضيل السلف على الخلف) .

إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية (وَلَا تَمْجُلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وتحقيق معنى النسخ هنا فى غاية الإشكال ، لأن قوله (وَلَا تَمْجُلْ) نهى عن
العجلة ، وقوله (سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى) ليس بأمر بها لیسكون ناسخاً للذى عنها . بل هو خبر
عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفخواه مؤكداً لمعنى الخطاب الآخر . لأن تأويله إنا نحفظك تحفيظاً لا تخاف معه
النسيان . فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخاً ، لغة
لاحقة ، على معنى تبدل الحال عنده . فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما
كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى « إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه
شيئاً من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجملة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى فإنه ينسى . ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً
كلياً دائماً . وذلك لأن ما بالجملة لا يتغير . وإلا لكان الإنسان عالماً آخر .

وقد روى البخارى ^(٢) عن عائشة أن النبى ﷺ قال : رحم الله فلاناً . لقد أذكركنى كذا
وكذا آية ، كنت أسقطهن . وروى أنسبن .

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦] . (٢) أخرجه فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ،

١١ - باب شهادة الأعمى ، حديث رقم ١٢٩٢

وقال عليه السلام : إنا أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني . رواه الشيخان ^(١) عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازي بمعنى القلة المراد بها النفي ، وذلك أن المخرج في الاستثناء أقل من الباقي . ولأن (ما شاء الله) في العرف يستعمل للمجهول . فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم . فإذا دل مثله على القلة عرفاً ، والقلة قد يراد بها النفي في نحو (قل من يقول كذا مجازاً) أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزمخشري بقوله : (أو قال إلا ما شاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه (أنت سهمي فيما أملك إلا فيما شاء الله) ولا يقصد استثناء شيء . وهو من استعمال القلة في معنى النفي .

وقال القراء - فيما نقله الرازي - : إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمدًا عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه ، كما قال ^(٢) (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وبالجمله ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرته ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

« إِنَّهُ وَيَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى » أي ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله (سَنُقَرِّئُكَ) مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحي وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المقرأ الموحى به للعمل . ليس فيه حرج وعسر ، بقوله تعالى « وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى » أي نوفك للطريقة اليسرى ، أي الشريعة السمحة السهلة ، التي هي أيسر

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان

حديث رقم ٢٦٦

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٨٩ (طبعنا)
(٣) [١٧ / الإسرائ / ٨٦] .

الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر «فَذَكَّرْ» أى عباد الله عظمته، وعظمتهم وحذرهم عقوبته «إِنْ نَفَعْتَ الَّذِينَ كَرَىٰ» أى الموعظة. و(إِنْ) إما بمعنى (إِذْ) كقوله تعالى (١) «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أو بمعنى (قَدْ) على ما قاله ابن خالويه . ويؤيده قوله تعالى (٢) «وَذَكَّرْ فَإِنَّ الَّذِينَ كَرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» وقيل: (إِنْ) شرطية. والمعنى ذم المذكرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، تسجيلاً بالطبع على قلوبهم كالتقول للواعظ: (عظ المسكسين إن سمعوا منك) قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون «سَيِّئًا كَرُ» أى يقبل التذكرة وينتفع بها «مَنْ يَخْشَى» أى يخاف العقاب على الجحود والعناد، بعد ظهور الدليل «وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى* الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى» أى العظمى ألماً وعذاباً «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْشَى» أى لا يهلك فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه. قيل: إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا (لا هو حي ولا ميت) فجاء على مألوفهم في كلامهم . و (ثم) هنا للتفاوت الربنيّ، إشارة إلى أن خلوده أفضح من دخوله النار، وصلّيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى»

[١٥] «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»

[١٦] «بَلْ تُوْزِنُونَ أَلْحَيَاةَ الدُّنْيَا»

[١٧] «وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»

[١٨] «إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى»

[١٩] «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى»

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» أى فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٩] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٥] .

بما أمره الله به «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» أى تذكر كرجال ربه وعظمته، نخشع وأشفق وقام بحاله وعليه ، كقوله تعالى (١) «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» وجوز أن يحمل (تَزَكَّى) على إيتاء الزكاة (صلى) على إقامة الصلاة، كآية (٢) «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» لما عهد فى كلامه تعالى من الجمع بينهما فى عدة آيات، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه، بأن المعبود فى التنزيل الكريم تقديم الصلاة. وأجيب بأنه لا ضير فى مخالفة العادة، مع أن الجارى تقديمها إذا ذكرت باسمها. أما إذا ذكرت بفعل مأخوذ منها، فلا . كقوله (٣) «فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى» والأول أظهر، لأنه أشمل وأعم . وهو أكثر فائدة . «بَلْ تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام . كأنه قيل، إثر بيان ما يؤدى إلى الفلاح : لانفعلون ذلك بل توثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالسكينة، كفى قوله تعالى (٤) «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا» الآية . أو للكل ، فالمراد بإيثارها ما هو أهم مما ذكر ، وما لا يخلو عنه الإنسان غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة ، فى السعى وترتيب المبادئ . والالتفات على الأول لشديد التوبيخ . وعلى الثانى كذلك فى حق الكفرة ، وتشديد العتاب فى حق المسلمين . وقرئ (يُوثَرُونَ) بالياء «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» أى أفضل ، لخلوصها عما يكدر . وأدوم لعدم انصرام نعيمها . والجملة حال من فاعل (توثرون) مؤكدة للتوبيخ والعتاب «إِنَّ هَذَا» أى ما ذكر فى قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) أو ما فى السورة كلها «لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى» أى ثابت فيها معناه «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى» بدل من (الصحف الأولى) وفى إيهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لا يخفى .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] .

(١) [٨ / الأنفال / ٢] .

(٤) [١٠ / يونس / ٧] .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١] .